﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٧﴾ [العنكبوت: 7]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد بيان المنتفع من المجاهدة أتبعَهُ ببيان ما ينال أهلَ الإيمان

بعد أن ذكر النَّظمُ الجليلُ في الآيات السّابقة أنَّ "العبد لا يُترك في الدُّنيا سدًى، وأنَّ مَن ترك ما كُلِّفَ به عُذِّبَ؛ أردف ذلك ببيان أنَّ مَن يعترف بالآخرة، ويعمل لها، لا يضيِّع اللّهُ عملَهُ، ولا يخيِّب أملَهُ، ثمَّ ذكر أنَّ طلب ذلك من المكلَّف ليس لنفعٍ يعود إلى اللّه تعالى، فهو غنيٌّ عن النّاس جميعًا، ثمَّ أرشد إلى أنَّ جزاء العمل الصّالح تكفير السَّيِّئات، ومضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها فضلًا منه ورحمة"[1]، أي: بعد أنْ بيَّن إجمالًا أنَّ مَن يعمل صالحًا؛ فلنفسِهِ، فصَّل بعضَ التَّفصيل أن جزاءَ المطيع الصالح عمله[2].

ومن المناسبة أنَّه تعالى لمّا ذكر بذْلَ الوسْعِ في العبادة والجهاد للّه تعالى، في قوله: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾ [العنكبوت: 6]، وأنَّ المنتفعَ من ذلك إنَّما هم العباد؛ أتبعه بعد ذلك ببيان ما يلاقي المؤمنون من التَّكفير والجزاء الحسن في الآخرة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَنُكَفِّرَنَّ﴾: (كفر) أصلٌ يدلُّ على السَّترِ والتَّغطيةِ، وكلُّ ما غطَّى شيئًا، وكلُّ من سترَ شيئًا؛ فقدَ كفرَهُ، ويقالُ للزّارعِ: كافرٌ؛ لأنَّهُ يكفِّرُ البذرَ، أي: يغطّيهِ، ويسترُهُ بالتُّرابِ[3]، ويقال: كَفَرَتِ الشمسُ النُّجومَ: سترتها، ويقال: الكافِرُ للسَّحاب الذي يغطّي الشَّمسَ

(1) المراغي، تفسير المراغي: 20/ 115.
(2) الرّازي: التّفسير الكبير: 25/ 29.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفر).

واللَّيل[1]، والكَفّارَةُ: ما يغطّي الإثم، ومنه: كَفّارَةُ اليمين، نحو قوله: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: 89]، والتَّكْفيرُ: سترُهُ وتغطيتُهُ حتى يصيرَ بمنزلة ما لم يعمل، ويصحُّ أن يكونَ أصلُهُ إزالةَ الكفرِ والكفران، قال تعالى: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ [آل عمران: 195]، والكُفرُ: ضدُّ الإيمانِ، فهو تغطيةٌ للحقِّ، وتكفيرُ السَّيِّئات: سترُها وتغطيتُها، فلا تُرى، ولا يُؤاخذ عليها[2].

2) ﴿سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾: (سوأ) أصْلُ السّوءِ: القُبْحُ، وضِدُّه: الحُسْنُ[3]، والسّوءُ: الشَّرُّ والفَسادُ، يُقالُ: عَمِلَ سوءًا، أي: شَرًّا وفَسادًا[4]، والإساءَةُ: فِعْلُ الشَّرِّ وما يُكْرَهُ، ومن مَعانيه أيضًا: المُنْكَرُ والفُجورُ والبَلاءُ والعَذابُ، والشَّتْمُ والشِّدَّةُ والقَتْلُ[5]، فالسّوءُ: هو كلُّ ما يغُمُّ الإنسانَ، ويكرهُهُ مِنَ الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ، ومِنَ الأحوالِ النَّفسيَّةِ، والبدنيَّةِ، والخارجةِ، من فَواتِ مالٍ وجاهٍ وفَقدِ حميمٍ ومصيبةٍ، ومنه يُقالُ: ساءَني كذا، وأسَأتَ إلى فلانٍ، وتُطلَقُ السّيّئةُ باعتبارِ الشَّرعِ، فتكون بمعنى: الخطيئةِ، وباعتبارِ الطَّبعِ، أي: ممّا يغُمُّ الإنسانَ مِن ضُرٍّ وفَقرٍ ونحوهما[6]، والمرادُ بالسّوءِ في الآية: الخطايا والأعمال المخالفة للشَّرع.

3) ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ﴾ (جزي) أصْلٌ وهو الاكْتِفاءُ بالشَّيْءِ، يُقالُ: اجْتَزَأْتُ بالشَّيْءِ اجْتِزاءً؛ إذا اكْتَفَيْتُ به، وأجْزَأني الشَّيْءُ إجْزاءً؛ إذا كَفاني، ويُقالُ: جَزَيْتُ فُلانًا أجزيه جَزاءً، وجازَيْتُهُ مُجازاةً[7]، والجَزاء: ما فيه الكفاية من المقابلة، إن خيرًا؛ فخير، وإن شرًّا؛ فشرٌّ، ولم يجئْ في القرآن إلّا جزى دون جازى، وذاك أنَّ المجازاةَ هي المكافأة، وهي المقابلة من كلِّ واحدٍ من الرَّجُلين، والمكافأة هي: مقابلة نعمة بنعمة هي كفْؤُها، ونعمة اللّه تَتَعالى عن ذلك، ولهذا لا يستعمل لفظ المكافأة في اللّه ﷻ، وهذا ظاهر[8]، والمقصود بالجَزاءِ في الآية: المُكافَأةُ على العَمَلِ بما يُناسِبُ ذلكَ العَمَلَ مِنْ خَيْرٍ أو شَرٍّ.

(1) الرّاغب، المفردات: (كفر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (كفر).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سوأ).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (سوأ).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (سوأ).
(6) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سوأ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جزي).
(8) الرّاغب، المفردات: (جزا).

4) ﴿أَحۡسَنَ﴾: (حسن) أَصْلٌ واحِدٌ، والحُسْنُ ضِدُّ القُبْحِ[1]، والحَسَنَةُ: ضِدُّ السَّيِّئَةِ، والإحْسانُ: ضِدُّ الإساءَةِ، والحَسَنُ: ما حَسُنَ من كلِّ شيءٍ[2]، والحُسْنُ: عبارةٌ عن كلِّ مُبهِجٍ مرغوبٍ فيه، وذلك ثلاثة أضربٍ: مُستَحسَنٌ من جهة العَقل، ومن جهة الهوى، ومن جهة الحسِّ، وأكْثَرُ ما يُقالُ المُسْتَحْسَن بالبَصَرِ، وأكْثَرُ ما جاءَ في القُرْآن في المُسْتَحْسَن مِن جهَةِ البَصيرَةِ[3]، والمقصود بالأحسنِ في الآيةِ: الجزاءُ الحَسَن.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإيمانُ والعمل الصالح عاقبتُهُ تكفيرُ السيِّئ والمكافأة بالأحسن

يخبرُ النَّظمُ الجليل عن المؤمنين الصّادقين، الذين أُتْبعوا الإيمان بالعمل الصّالح تحقيقًا لإيمانهم بأنَّ الله تعالى أعدَّ لهم أبلغَ المثوبة، فأقسم على أنَّه سيستر سيِّئاتِهم، ويزيلها عنهم بفضله وإحسانه من صحائف أعمالهم، وأقسم على أنَّه سيجازيهم بأحسن الجزاء على أعمالهم الصّالحة التي كانوا يعملونها في الدُّنيا[4]، أي: والذين آمنوا بالله ورسوله، وصحَّ إيمانهم حين ابتلائهم، فلم يرتدّوا عنه بأذى المشركين لهم، وعملوا صالح الأعمال، فأدّوا فرائضه، وقاموا بها حقَّ القيام، لنكفِّرنَّ عنهم سيئاتهم ولنثيبنَّهم على صالح أعمالهم حين إسلامهم أحسن ما كانوا يعملون، فنقبل حتّى القليلَ من الحسنات، ونثيب على الواحدة منها عشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ (الواو) في جملة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

التَّبشيرُ بعدَ الوعيد من تمام التَّرغيب

عطفَ النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسن).
(2) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (حسن).
(3) الرّاغب، المفردات: (حسن).
(4) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 11/ 15.
(5) المراغي، تفسير المراغي: 20/ 116.

وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ على الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾ [العنكبوت: 4]، فإنَّ الجملةَ المعطوف عليها تضمَّنت التَّهديد والوعيد، فعطف عليها ما يتضمَّن الوعد والبشارة للذين آمنوا وعملوا الصالحات، ويجوز أن تكون معطوفةً على الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ﴾ [العنكبوت: 6]، وفائدةُ هذا العطف: بيانُ علَّةِ ذلك الجزاء، وهو الإيمانُ والعمل الصّالح[1].

بلاغةُ الاحتراسِ في الآية:

لكلِّ عملٍ صالحٍ عند الله أجرٌ

الآيةُ احتراس ممّا تقرَّر في الآية السّابقة من أنَّ جهادَ المجاهدين، وما يصيبهم على طريق الجهاد، هو لهم، وليس لله منه شيء، وهذا الاحتراس يدفع ما يقع في النُّفوس من أنَّ الجهاد والبلاء لا أجر له عند الله[2].

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصول وصلته في الآية:

جـزاءُ الإيـمـان والعمل الصّالح التَّكفيرُ والجزاءُ الحسن

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن المؤمنين بالاسم الموصول في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾؛ للدَّلالة على علَّة الحكم، فما تضمَّنته صلة الموصول من الدَّلالة على الإيمان والعمل الصّالح هو علَّةُ تكفير السّيئات والجزاء الحسن[3]، فالموصول سببٌ لمضمون الخبر، أي: إنَّ الإيمان سببٌ لمحو جريمة الكفر، والطاعات سوى الإيمان سببٌ لعفو المعاصي سوى الكفر، هذا لمن سبق إيمانُهُ بالكفر، وأمّا من لم يسبق؛ فالإيمان والعمل سببانِ لتكفير السيئات، ولا يلزم من كون المجموع سببًا؛ لكون كلٍّ واحد منهما سببًا[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 211 - 212.
(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 10/ 406.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 212.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 15.

نكتةُ حذفِ متعلّق الإيمان في الآية:

علامةُ المؤمنِ الإيمانُ المُطلق بكلِّ ما يجبُ الإيمانُ به

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالإيمان مطلقًا عن القيود في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فلم يبيِّن بمَ آمنوا؟ وذلك للدَّلالة على مطلق الإيمان؛ تفخيمًا لشأنه، فإنَّ مجرَّد الإيمان والتَّصديق بما أخبر به النَّبيُّ ﷺ كافٍ في حوز صفة الإيمان العامِّ، كما أنَّ حذْفَ المتعلِّق يشير إلى إيمانِهم بكلِّ ما يجبُ الإيمانُ به، ففيه تزكيةٌ لإيمانهم مع الإيجاز في التَّعبير.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

العملُ الصّالح تصديقٌ لرسوخ الإيمان وصدقه

عطف النَّظمُ الجليل العمل الصّالح على الإيمان في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ العمل يصدِّق الإيمان، ولأنَّ العمل الصّالح نتيجةٌ للإيمان، وثمرة من ثمراته[1]، وفي هذا العطف دليلٌ ظاهرٌ على أنَّ الإيمانَ قد لا يكفي وحده في ذلك، بل لا بدَّ أن يقرن العبدُ المؤمن إيمانَهُ بالعمل الصّالح، ففيه احتراسٌ عن انتفاء كفاية الإيمان بالقلب دون العمل[2]، ولمّا كان العطف يوجب التَّغاير؛ دلَّ على أنَّ الأعمال الصّالحة مغايرةٌ للإيمان[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضي:

ثبتَ الإيمانُ، ورسخ في قلوبهم، واستقرَّ العمل في سلوكهم

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن الإيمان والعمل الصّالح بالفعل الماضي في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ للدَّلالة على أنَّ إيمانهم تحقَّق وتمَّ[4]، فكان إيمانهم راسخًا مؤكَّدًا، وعملهم صالحًا مُحقَّقًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ الصَّلاح مجموعًا في ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بلفظ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في قوله جلَّ شأنه:

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 18/ 11081.
(2) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 137.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 29.
(4) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 11/ 18.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لأنَّ الصَّلاح يدلُّ على خلاف الفساد، وهو خاصٌّ بصفةٍ بالأفعال[1]، فانتفى وصف الفساد عن أعمالهم، فلم يبقَ فيها غيرُ الصَّلاح والانتفاع والخير، وجيء بها بصيغة الجمع للدَّلالة على كثرة تلك الأعمال، وعلى شمول عملهم لكلِّ ما هو صالحٌ، كما فيه تزكيةٌ لكلِّ أعمالهم بخلوِّها من الفساد.

خلت أعمالهُم مِـن كـلِّ سوء وقبح وفساد

معنى (أل) في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

عرَّف النَّظم الجليل لفظ الصّالحات في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بالألف واللّام الجنسيَّة، أي: عملوا جنس الصّالحات، فتشمل كلَّ أعمال الخير، من الواجبات المفروضة، ومن المستحبّات المسنونة والمباحات المرغوبة[2].

نـالـوا مـن كـلِّ الخيرات بنصيب وفَّقهم الله له

علَّةُ حذفِ المفعول والاكتفاء عنه بصفته:

حذف النَّظمُ الجليلُ المفعولَ به في قولهِ جلَّ شأنه: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وأبقى صفته، والتَّقدير: (وعملوا الأعمال الصّالحات)، فالصّالحات صفةٌ لمحذوفٍ، هو الأعمال، وهذه الصِّفة تقوم مقام الاسم، فلمّا كثرَ لفظ (العمل الصّالح)؛ صار لفظ (الصالح) بمنزلة الاسم الدّال على عمل خير، كقوله جلَّ شأنه: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الكهف: 107][3]. وإنَّما وصف هذه الأعمال بكونها صالحةً لِما فيها من المنافع؛ لأنَّ المنفعة مصلحة[4].

صَـلُـحـت أعمالهم حتّى صارت الصَّلاح نفسَهُ

علَّةُ تقديمِ الإيمان على العمل:

قدَّمَ النَّظمُ الجليل ذِكرَ الإيمان على العمل الصّالح في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأنَّ قبول العمل مشروط بتقدُّم الإيمان، فالعمل بلا إيمان لا يُقبل[5].

لا تقبل الأعمال بـغـير الإيـمـان بذي الجلال

(1) الرّاغب، المفردات: (صلح).
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 627.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 332 - 333.
(4) الماوردي، النّكت والعيون: 3/ 310.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 30.

دلالةُ التَّأكيدِ في ﴿لَنُكَفِّرَنَّ﴾:

تأكيدُ المضمونِ مبالغةٌ في تحقيق الوعد

أكَّد النَّظمُ الجليل الجملة الفعليَّة باللّام الموطِّئة للقسم، ونون التَّوكيد الثَّقيلة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾، والتَّقدير: (وعزَّتي وجلالي؛ لأكفرنَّ عنهم ذنوبهم)، وذلك للمبالغة في تأكيد التَّكفير، فأكَّده بمؤكِّدين، ودلَّ ذلك على تحقُّق هذا الوعد تحقُّقًا لا يدنو إليه الشَّكُّ، أي: "لَنُبْطِلَنَّها حتّى تَصيرَ بمنزلة ما لم يُعمل، فالتَّكفيرُ إذهابُ السَّيئةِ بالحَسَنة"[1].

وإنَّما أكَّد التَّكفير؛ "لأنَّ الإنسانَ مجبولٌ على الانتقام ممَّن أساء، ولو بكلمةٍ، ولو بالامتنان بذكر العفوِ، فلا يكاد يحقِّق غير ما طبع عليه"[2]، فالتَّكفير بمحض التَّفضُّل ليس ممّا يعهده النّاس.

سرُّ التَّعبير عن التَّكفير بصيغة التَّعظيم:

كثرةُ التَّكفير وتأكُّد وقوعِهِ كائنٌ بسبب عظمة الرَّحمن وجلاله

عبَّر النَّظم الجليل عن تكفير السيئات بالفعل الدّالِّ على تعظيم المتكلِّم المفرد، في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾؛ وذلك لأنَّ تكفيره الكثير جلَّ في علاه من دون عوض، بل هو محضُ عفوٍ وستر على العباد، فهو منَّةٌ عظيمة لا تقع إلّا مِن اللّه العظيم ﷻ.

نكتةُ إيثار فعل التَّكفير مضارعًا:

ستر الذُّنوب من الافتضاح منَّةٌ من الفتاح

آثر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بلفظ التَّكفير في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾؛ للدَّلالة على ستر الذُّنوب عنهم وعدم افتضاحهم، فهو يتضمَّن العفو مع السَّتْرِ، وجيء به مضارعًا للدَّلالة على دوام الحكم واستمراره بدوام الإيمان والعمل الصالح.

علَّةُ تقييدِ التَّكفير بالجار والمجرور ﴿عَنْهُمْ﴾:

قيَّد النَّظمُ الجليل تكفيرَ السّيّئات بشبه الجملة: ﴿عَنْهُمْ﴾ في

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 12/ 140.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 395.

قوله جلَّ شأنه: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾، وحرف الجرِّ (عن) يدلُّ على المجاوزة، فالسّيئات ستُستر، وتنفصل عنهم؛ إشارةً إلى مغفرة جميع السّيئات، ولو قال: (من سيئاتهم)؛ لدلَّ على مغفرة بعضها، فالقيد ﴿عَنْهُمْ﴾ يشير إلى عِظم الإكرام وسعة المغفرة.

المغفرةُ شاملةٌ لكلِّ السَّيّئات

علَّةُ إيثار مفردة الـ(سيئات) وجمعها:

عبَّر النَّظمُ الجليل عن المعاصي بلفظ السَّيِّئة في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾، وذلك لأنَّ السَّيِّئة تشمل الكفر والمعصية[1]، فالجمع دالٌّ على كثرة التَّكفير، وهو مناسب لورود التَّكفير بصيغة المبالغة، فتظافرت المفردات على بيان كثرة المغفرة وسعتها وشمول جميع سيّئاتهم.

كثرةُ المغفرةِ شملت العفوَ عن جميع السَّيّئات

دلالةُ إضافةِ الـ(سيئات) إلى ضميرهم:

أضافَ النَّظمُ الجليل السَّيِّئاتِ إلى الضَّمير الغائب العائد على أهل الإيمان والعمل الصّالح، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾، دون أن يقول: (لنكفِّرنَّ عنهم السَّيِّئات)؛ للإشعار بمغفرة السَّيّئات المنسوبة إليهم لبيان مزيد الإكرام، فتكفيرُ السَّيِّئات هم المقصودون به؛ لأنَّ "الإنسان وإن اجتهد لا بدَّ أن يزلَّ؛ لأنَّه مجبول على النقص"[2].

مقصودُ التَّكفيرِ إكرامُ المؤمنين

معنى (الواو) في جملة ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾:

عطف النَّظمُ الجليل الجزاءَ على التَّكفير في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، فأتمَّ عليهم نعمتَهُ، فبعد أن بشَّرهم بالعفو عن سيِّئاتهم الموجبة للعقاب، أتمَّ تلك البشرى بالامتنان عليهم بعظم الثَّواب[3]، فلمّا كان التَّكفيرُ

الإنعام بالعفو متمَّمٌ بحُسنِ الجزاء

(1) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 137.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 394.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 395.

محضَ تفضُّل منه ﷻ؛ دلَّ ذلك على بقاء حسناتِهم، فلم تُطرح عنهم مقابل العفو عن السَّيِّئات، وفيه تأكيدٌ لتفضُّله وكرمه لهم[1].

دلالةُ تأكيدِ الجملة في ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾:

الجزاءُ العظيم مؤكَّدٌ محقَّقٌ تفضُّلًا من المولى الكريم

أكَّد النَّظمُ الجليل الجملة الفعليَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ باللّام الموطِّئة للقسم، ونون التَّوكيد الثَّقيلة، وفائدةُ ذلك تأكيد تحقُّق ذلك بلا ورود الشَّك عليه، وذلك لأنَّ الجزاءَ بأحسن الأعمال إنَّما هو محضُ تفضُّل من الله تعالى، فأكَّده تحقيقًا لوقوعه، وردًّا على استغراب سامعيه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجزاء، وصوغه مضارعًا:

إنَّ اللهَ لا يضيع أجرَ المحسنين

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظ الجزاء في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ تعبيرًا عن كون ما كافأهم الله تعالى به إنَّما هو بمقابل ما صلح من علمهم وما صدق من إيمانهم؛ وذلك لأنَّ الجَزاء يدلُّ على ما فيه الكفاية من المقابلة، إن خيرًا؛ فخيرٌ، وإن شرًّا؛ فشرٌّ[2]، وجاء التَّعبيرُ بصيغة الفعل المضارع للدَّلالة على تجدُّد ذلك الجزاء ودوامه.

لطيفةُ إسنادِ المجازاة إلى ضمير العظمة في (نجزي):

الجـزاءُ عظيمٌ لأنَّـه مـن إلـهٍ عظيم كريم

عبَّرَ النَّظمُ الكريم عن الجزاء بالفعل الدالِّ على تعظيم المتكلِّم المفرد في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، دون أن يقول: (ولأجزينَّهم)؛ لأنَّه أرادَ تعظيمَ الجزاء بنسبته إلى عظمة المجازي، أي: نجزيهم ذلك الجزاء بما لنا من العظمة، وفيه إشارة إلى علوِّ رتبة الإيمان والعمل الصّالح وفخامة جزائهما.

نكتةُ تقديمِ التَّكفير على المجازاة:

قدَّم النَّظم الجليلُ تكفيرَ السّيئات على الجزاء الحسنِ في قوله

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 20/ 133.
(2) الرّاغب، المفردات: (جزا).

جلَّ شأنه: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، فبدأ بتكفير السّيئات، وقدَّمها على إعطاء الحسنات؛ لأنَّ التَّخلية قبل التَّحلية، فالله تعالى يطمئن عباده بأنَّه سوف يُطهِّرهم من هذه الذُّنوب قبل أنْ يعطيهم الحسنات[1]، فهو تبشير بمحو ما في صحائفهم ممّا يقلقهم من الافتضاح، فأزال داعي القلق؛ ليفرحوا بداعي البشارة والجزاء الحسن أتمَّ الفرح وأحسنه.

أزالَ داعي العذاب ليتمَّ الفرح بالتَّبشير

توجيهُ التَّعبيرِ بمفردة الحُسن دلالةً وصيغةً:

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بلفظ الأحسن في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ لأنَّ الحسن هو الشَّيء المبهج لمن ينظر إليه، والمرغوب فيه، وذلك من جهات العقل والشَّرع والهوى والحسِّ[2]، فدلَّ على كمال جزائهم وجودته، وجاء بصيغة المفاضلة؛ للتَّنبيه على أنَّه سيجزيهم على كلِّ أعمالهم، فإنَّه إذا جازاهم بالأحسن، فلا شكَّ أنَّه سيجازيهم بما هو دونه، فهو من التَّنبيه على الأدنى بالأعلى[3].

جمالُ الأعمالِ وحسنها يكافأ بحسن الجزاء وكماله

نكتةُ إضافة ﴿أَحْسَنَ﴾:

أضاف النَّظمُ الجليل لفظَ الأحسن إلى أعمالهم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ للدَّلالة على تعظيم الجزاء كلِّه؛ على أنَّ الجزاء يكون مقدَّرًا "بأحسن أعمالهم، وتقدير الكلام: لنجزينَّهم عن جميع صالحاتهم جزاء أحسن صالحاتهم"[4]، فلمّا كانت الأعمال متفاضلةً، وهي ليست برتبة واحدة، فإنَّ الجزاءَ عليها يكون مختلفًا بالأصل، ولكنَّ الله تعالى تفضَّل بمحضِ كرمِهِ أن يكون الجزاءُ برتبة واحدة، وهو الجزاءُ الذي يقابل أحسن أعمالهم، فرفع رتبة جزاء سائر الأعمال ﷻ.

رتبةُ الأعمالِ معتبرةٌ برتبة أفضل أعمالهم في الجزاء

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 18/ 11082 - 11083.
(2) السّمين، عمدة الحفاظ: (حسن).
(3) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 11/ 15.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 212.

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصول ﴿ٱلَّذِى﴾:

العـمـلُ الـذي يـتَّـصـف بـأعلى رتبة في الأجر هو معيار جزائهم

آثر النَّظمُ الكريم إيراد الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ دون أن يقول (أحسن ما كانوا يعملون)؛ لأنَّه أراد التَّعبير عن فعل محدَّد وهو أفضل أعمالهم، فلمّا بيَّنَ أنَّه سيجازيهم جزاء أحسن عملهم؛ فإنَّه سيكون محدَّدًا بالفعل الأعلى رتبة في الأجر، وهو عمل محدَّد، فليس السّياق في الدَّلالة على عموم الأعمال.

توجيهُ المتشابه اللفظي:

خُصَّتْ هَذِه السّورَة بِـ﴿ٱلَّذِى﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ لأنَّ الحديث عن فعل محدَّد، وهو أفضل أعمالهم، وليس على عموم الأعمال، وخُصَّت آية النَّحل: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧﴾ [النحل: 97]، بِـ﴿مَا﴾؛ لكون الحديث عن عموم الأعمال بدلالة تنكير ﴿صَٰلِحٗا﴾ [النحل: 97].

دلالةُ التَّعبيرِ بالكون الماضي:

صَـلُـح طبعهم فحسن عملهم

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بفعل الكون في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، دون أن يقول: (أحسن الذي يعملون)؛ لما في فعل الكون من دلالةٍ على رسوخ الفعل فيهم، أي: الفعل الذي عملوه قبل الإسلام وبعده، وقد رسخ في طبعهم فعُلُّهُ[1]، فاعتادوا عليه حتّى سَهُلَ عليهم، فهُم يأتونه سجيَّةً بلا كلفة.

دلالةُ التَّعبيرِ بالعمل دون الفعل:

يُـعـتـبرُ العـمـل بالنّيّة والقصد

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ العمل دون الفعل في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ لأنَّ العمل ما كان مقصودًا مرادًا، فهو يتضمَّن النّيَّة والقصد، والعمل إنَّما يكون

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 395.

معتبرًا متى ما قُصِدَ ونويَ، وبناء على هذا قال الفخر الرّازي: "هذا يقتضي أن تكون النّيَّة شرطًا في الصالحات من الأعمال، وهي قصد الإيقاع لله"[1].

دلالةُ الانتقالِ من المُضيِّ إلى المضارعة:

الأعمالُ الصّالحة راسخةٌ في طباع المؤمنين متجدِّدة في سائر أزمانهم

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل المضارع ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ بعد ورود فعل الكون الماضي في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ للدَّلالة على دوام التَّجدُّد والاستمرار في أفعالهم منذ القدم، فهم راسخون على تلك الأفعال مع تجديدها والدَّوام فيها، وهذا يدلُّ على إصرارهم على الخير والعمل الصّالح.

بلاغةُ المقابلة في الآية:

جزاءُ الإيمانِ تكفيرُ السّيئات، وجزاء العمل الصالح الأحسنُ

ذكرَ الله من أعمال العبدِ نوعين: الإيمانَ، والعملَ الصالح، وذكر في مقابلتهما من أفعال الله أمرين: تكفيرَ السَّيِّئات والجزاءَ بالأحسن، فتكفيرُ السَّيِّئات في مقابلة الإيمان، والجزاء بالأحسن في مقابلة العمل الصالح، وهذا من بديع نظم القرآن تناسقًا وتكاملًا[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السيئات والمعاصي:

المعصيةُ خلاف الطّاعة، والعناد وعدم القبول بالأمر، والسَّيِّئة ضدُّ الحسنة

والسَّيِّئَةُ: الفِعلةُ القبيحة، وهي ضدُّ الحسنة[3]، أمّا العِصيانُ؛ فهو خِلافُ الطّاعَة، عَصى العبدُ رَبَّهُ؛ إذا خالَف أمْرَه، وعَصَى فُلانٌ أميرَه؛ إذا لَمْ يُطِعْهُ، ويُقالُ للجَماعةِ؛ إذا خَرَجَتْ عَنْ طاعةِ السُّلْطان: قَدِ اسْتَعْصَتْ عَلَيْهِ[4]، ويقال: عَصا؛ إذا صَلُبَ، أي: اشتدَّ، واستعصى عليه الشَّيءُ، واعتَصَتِ النَّواة: اشتدَّت، ومن هذا جاءَ العصيانُ، فأصله الصَّلابة وعدم الانثناء، أو الانقياد: ﴿وَمَنۡ عَصَانِي

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 30.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 30.
(3) الرّاغب، المفردات: (سوأ).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عصا).

﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم: 36][1]، فالمعصية نقيض الطّاعة، والسّيئة نقيض الحسنة، فيُلاحظ أنَّ العصيان يدلُّ على العناد، وعدم القبول بالأمر، وانتفاء الطّاعة، أمّا السَّيِّئة؛ فهي ارتكاب فعلٍ لا يقبله الشَّرع، فالمعصية أشدُّ من السَّيِّئة، لما فيها من دلالة على العناد والصَّلابة وعدم التَّقبُّل من الأصل، وقد عبَّر في الآية بالسَّيِّئات؛ لأنَّ المعاصي خلاف ما يلزم الإيمان، فهي لا تتصوَّر بمن قبل الإيمان، والتزم بالطّاعة.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عصو - عصى).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والأربعون،
سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 42 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-93-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 42 : المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-93-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2154237 بتاريخ 2024/12/25م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»